تعزيز التضامن العربي: من شعارٍ إلى مشروع سياديّ

(مداخلة في احتفالية الذكرى 6 لتأسيس المعهد)

أ. بدر شحادة: باحث في الدكتوراه، عضو في المعهد العالمي للتجديد العربي/ عضو في لجنة التاريخ: مركز الدراسات الاستراتجية– لبنان

لم يعد الحديث عن التضامن العربي الفعّال ترفًا خطابيًا أو استهلاكًا إعلاميًا. بل بات ضرورة وجودية تُحتّمها تحوّلات الإقليم وتداعيات النظام الدولي .فأي مشروع يستتهدف تأسيس أمن قومي عربي لا يمكن أن ينجح إذا لم ينطلق من الداخل، من عقلٍ قياديّ استراتيجي يُعيد ترتيب الأوراق الداخلية، لا سيما في ظلّ فشل منظومات الحكم في إنتاج مشروع نهضوي حقيقي.

إنّ إعادة هندسة بنية الدولة تبدأ من إصلاح الحكم، وإعادة تعريف مفهوم "النخبة" على أساس الكفاءة والمواطنة لا الولاء السياسي أو الطائفي. فـ"الإنسان المواطن" هو أساس البناء، لا "الإنسان التابع"، ويستوجب ذلك منظومة اكتفاء ذاتي سياديّ، تبدأ من الاكتفاء الذاتي (الغذاء والدواء والتقنية، لا من مشاريع الاستيراد الهش والمساعدات المشروطة.

مأزق الأمن القومي العربي: العدو ليس فقط في الخارج

منذ النكبة عام 1948، ظلت إسرائيل تُقدَّم كعدوّ العرب الأوحد، غير أنّ العدو الأخطر نشأ من الداخل، من الانقسامات الإيديولوجية والسياسية منذ خمسينات القرن العشرين، بين تيارات إسلامية وقومية وناصرية وبعثية وشيوعية... مما أدّى إلى تفكّك في الرؤية الاستراتيجية وأجهض مشاريع الوحدة.

وقد كرّست بعض الدول العربية هذا الانقسام عبر اصطفافاتها الإقليمية المتباينة. فبعد انهيار منظومة "دول الطوق" وفشل جامعة الدول العربية في دورها الاستراتيجي، برزت اليوم ثلاثة تيارات في التعاطي مع الأزمات والتحديات التي يواجهها الأمن القومي العربي:

1. **تيار مفرّط** يرى في الثورات الشعبية خطأً استراتيجيًا ولا يجب تبني أي عمل ضد الكيان الا في إطار مدروس وضيق وهذا ما يُفقد عنصر المفاجأة، وعلى رغم من التحوّل إلى مجازر جماعية لم يشهد العالم العربي موقفا جادًا لانهائها وذلك ضمن حسابات تلك الدول.
2. **تيار ملتزم بالمعاهدات الإقليمية** لكنه عاجز ومقيّد.
3. **تيار إيران وأذرعها**، الذين استخدموا أتباعهم كأدوات في صراع النفوذ الإقليمي.

فهل نملك قرارًا سياديًا حقيقيًا؟ أم نحن ضحايا لغياب مشروع عربي جامع؟!

العقل العربي... المورد الاستراتيجي المنسي

لقد أهملت الأنظمة العربية – في خضمّ استيرادها لنماذج "التنمية الاستهلاكية" – المورد الأهم : العقل العربي .هذا العقل الذي يمتلك قدرة على الإبداع إذا ما أُتيحت له بيئة حاضنة، لا قمعية. فالتاريخ لا يرحم الأمم التي همّشت مثقفيها ومفكّريها، وراهنت على الأمن بالقمح بدلًا من الفكر.

تجربة آسيان... نموذج واقعي للتعاون بدون إذابة الهويات

وسط هذا المشهد، تبرز تجربة رابطة آسيان (ASEAN) كأنموذج للسيادة التعاونية، رغم أنها تضم دولًا نامية وذات خلفيات دينية وثقافية شديدة التنوع.

ودول آسيان (10) عشر دول : إندونيسيا، ماليزيا، سنغافورة، تايلاند، الفلبين، بروناي، فيتنام، لاوس، كمبوديا، ميانمار.

أبرز مظاهر النجاح:

- **استقرار إقليمي شبه متكامل** منذ 1967 دون حروب داخلية (طبعا كانت هناك توترات إقليمية..)
- **نمو اقتصادي شامل**: سوق تضم أكثر من 650 مليون نسمة، وإطلاق *ASEAN Economic Community* عام 2015.
- **حلّ النزاعات بالحوار والإجماع**، لا التدخل.
- **التحول إلى محور جيوسياسي عالمي** عبر منتدى ARF[1] وقمة +3.
- **شراكات استراتيجية** مع الصين، الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، واليابان.ورغم غياب القوة العسكرية الموحّدة والصلاحيات الإلزامية، حافظت آسيان على تماسكها عبر: مبدأ "عدم التدخل في الشؤون الداخلية" + مبدأ "الإجماع."

[1] - تأسس عام 1994 ضم المنتدى 27 عضوًا، منهم: دول آسيان العشر- قوى إقليمية كبرى: الصين، اليابان، الهند، كوريا الجنوبية. قوى عالمية: الولايات المتحدة، روسيا، الاتحاد الأوروبي، كندا، أستراليا. لا يملك المنتدى قوة تنفيذية أو عسكرية. هو أقرب إلى "منصة حوار استراتيجي".يناقش قضايا مثل: نزع السلاح النووي، الأمن البحري، مكافحة الإرهاب، الأمن السيبراني، الأزمات الإقليمية (مثل شبه الجزيرة الكورية، بحر الصين الجنوبي).

وهنا يقترح الباحث أولاً مقاربة مع قمة 3+ آسيان حيث يعرض الامكانيات المتاحة بين الدول العربية وبين آسيان من أجل النهوض نحو أمن قومي عربي جامع:

أولاً- التعريف

العنصر	قمة آسيان +3	تكتل عربي إقليمي (مقترح)
التكوين	آسيان (10 دول) + الصين + اليابان + كوريا الجنوبية	الدول العربية الـ22 أو نواة منها (مثلاً الخليج + مصر + الأردن + المغرب العربي)
تاريخ التأسيس	1997 بعد الأزمة المالية الآسيوية	مقترح جديد استجابة للتحديات العربية الحالية (صراعات، تدخلات، فشل مؤسسات التنسيق)
الإطار القانوني	غير ملزم، قائم على التوافق والإجماع	بحاجة إلى اتفاقية ميثاقية جديدة بديلة أو موازية لجامعة الدول العربية

الأهداف الاستراتيجية

المجال	آسيان +3	التكتل العربي المقترح
التكامل الاقتصادي	تعزيز التجارة البينية، العملات، المشروعات المشتركة	خلق سوق عربية موحدة، وتقليل التبعية للأسواق الأجنبية
الأمن الإقليمي	آليات استباقية مرنة دون تدخل مباشر	بناء منظومة أمن قومي عربي مشترك + استخبارات سيادية موحدة
التموضع الجيوسياسي	التوازن بين الصين وأمريكا واليابان	كسر الاصطفاف المحوري بين تركيا، إيران، وإسرائيل، وبناء كتلة عربية مستقلة
الحوكمة والسيادة	احترام السيادة، "مبدأ عدم التدخل"	تجاوز النزاعات الداخلية عبر التوافق، والحفاظ على الوحدة دون إذابة الخصوصيات

عوامل النجاح عند آسيان والتحديات لدى العرب

العالم العربي	آسيان +3	العامل
منقسم سياسيًا وأيديولوجيًا	نعم – رغم الاختلافات الثقافية والدينية	وجود إرادة سياسية عقلانية
اصطفافات حادة، خطاب إيديولوجي وتخوين	براغماتية عالية – تجنّب الصدام	النزعة الواقعية في العلاقات
غياب آليات حل النزاع العربي – العربي	عبر الحوار الجماعي والتدرج	القدرة على إدارة الأزمات
ثروات كبيرة ولكن مهدورة أو مُسيّسة	قوة سكانية، صناعية، وأسواق متكاملة	القوة الاقتصادية التراكمية

التحديات والفرص

التكتل العربي	قمة آسيان +3	العنصر
الانقسامات الداخلية، التبعية الخارجية، تآكل الثقة	توترات بحر الصين الجنوبي، الخوف من الهيمنة الصينية	التحدي الأكبر
استغلال الموقع الجيوسياسي والموارد الطبيعية، وتوظيف "العقل العربي"	جذب الاستثمارات العالمية والتكامل مع سلاسل القيمة	الفرصة الكبرى

توصيات استراتيجية لتأسيس التكتل العربي

1. **إنشاء نواة مصغرة** من الدول القادرة سياسيًا واقتصاديًا (مثل الخليج + مصر + الأردن + المغرب).
2. **ميثاق جديد قائم على السيادة التعاونية** لا الهيمنة أو التدخل.
3. **تحديد أولويات ثلاثية:**
   - الأمن الغذائي والدوائي
   - التصنيع والتقنية
   - التكامل العسكري والاستخباراتي
4. **اعتماد مبادئ آسيان:**
   - عدم التدخل

- الإجماع التدريجي
- إدارة الخلاف بالحوار لا العزل

إن الدرس المستفاد من قمة آسيان +3 هو أن التكتلات الإقليمية الناجحة لا تحتاج دائمًا إلى وحدة ثقافية أو قوة عسكرية موحدة، بل تحتاج إلى *عقل استراتيجي جماعي*، وميثاق مبني على **الواقعية، السيادة، والاحترام المتبادل** ...وهو ما يمكن للعرب أن يبنوه، إن وُجدت الإرادة والقيادة".

ختامًا إذا أراد العرب فعلاً استعادة دورهم الحضاري لا بدّ من:

1. **إعادة إنتاج الدولة الوطنية السيادية** على قاعدة المواطنة والعدالة والكفاءة.
2. **بناء منظومة أمن قومي عربي متكاملة** سياسيًا، اقتصاديًا، استخباراتيًا، وتقنيًا.
3. **تشكيل تكتل عربي يشبه "آسيان العرب" كخطوة أولى**، دون إذابة للهويات أو تبعية للأقوى.
4. **استثمار العقل العربي كقوة استراتيجية** لا تقل أهمية عن النفط أو الغاز.